تقرير

خليل حرب
khalilharb66@gmail.com

براغماتيّة بكين ومكاسبها ومخاوفها "حرب إيران" ما بين الصين وأميركا

الصين حيرت العالم، فما هي خلفية موقفها خلال الحرب الأميركية -الاسرائيلية على إيران؟ لماذا فضلت الا تتدخل فيها؟ أي مصالح غلبت لصياغة سياستها تجاه طهران والخليج وواشنطن؟ هل في امكانها احتواء اي اضرار لحقت بها؟ وهل يستند موقفها الى مبدأ اخلاقي أو براغماتية ضرورية لتعزيز صعودها الى صدارة المشهد العالمي؟

فعليا، تدرك الصين، ان الادارات الاميركية المتعاقبة تنظر اليها خلال العقود الثلاثة الماضية على الاقل، على انها الخطر الجيوسياسي الاكبر امام الولايات المتحدة، والمرشحة الاولى لاعتلاء موقع القوة السياسية والاقتصادية والتكنولوجية الاولى على الساحة العالمية، وهو ما تناولته بكثافة كل تقارير الامن القومي الاميركي وتقديرات وزارة الحرب الاميركية.

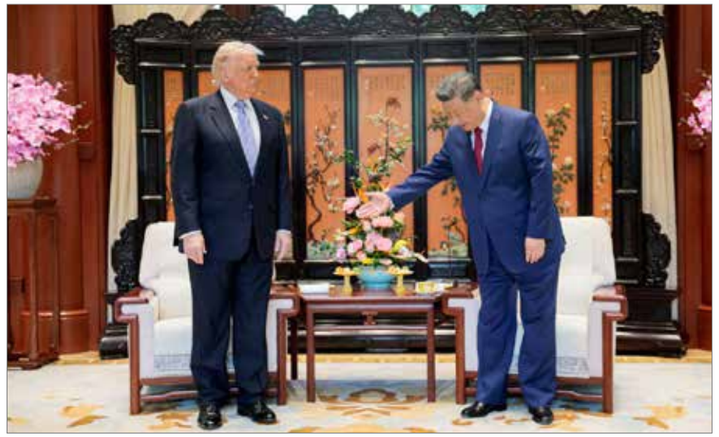

لهذا، فان بكين تدرك ان خسائر متتالية تلحق بها كلما هاجم الغرب - وتحديدا الولايات المتحدة - دولة "حليفة" لها. ففي العقدين الماضيين مثلا، كان هناك ليبيا، السودان، فنزويلا، العراق، سوريا. اللائحة تطول، فيما تشاهد بكين دولا استثمرت فيها الكثير، خصوصا من اجل مواردها النفطية ومشاريعها الاقتصادية، تتعرض لغزو او احتلال او عدوان او انقلاب.

الصين كانت تتابع بقلق هجوم الرئيس الاميركي دونالد ترامب على إيران، احدى العقد الاستراتيجية في الرؤية الصينية لتوسعها اقليميا، وإحدى النقاط المهمة في خطط مشروع "الحزام والطريق" التي استثمرت فيه حتى الان أكثر من 1.4 تريليون دولار.

إيران هنا، ليست تفصيلا في "الحزام والطريق"، وانما هي نقطة ربط جغرافية مركزية، ومثابة ممر اساسي يربط آسيا الوسطى بغرب آسيا، وحلقة وصل برية وبحرية تربط الصين وتطلعاتها نحو الشرق الاوسط وافريقيا واوروبا. بهذا المعنى، فان إيران بالنسبة الى الصين، ليست مجرد شريك اقليمي تستورد منه نفطا رخيصا بكمية 1.5 مليون برميل يوميا بأسعار تفضيلية.

اجمالا، ان موقف الصين الرسمي من حرب ترامب - نتنياهو على إيران، يمكن تلخيصه بالتالي: الدعوة الى وقف إطلاق النار؛ مطالبة واشنطن بوقف هجماتها؛ رفض فكرة الضربة الاستباقية في السياسات الدولية؛ تغليب الرهان على الوساطة الديبلوماسية؛ تجنب الانخراط العسكري في الحرب؛ او الدخول في تحالفات تلحق الضرر بعلاقات بكين مع الدول العربية.

مع ذلك، فان عين بكين ايضا على حجم العلاقات والترابط والتشابك الاقتصادي والتجاري مع الولايات المتحدة، رغم التوترات التجارية معها بسبب "حروب الرسوم" المتبادلة بين واشنطن وبكين، وهما يمثلان بلدين يشكلان معا أكثر من 40% من حجم الاقتصاد العالمي.

تظهر الارقام ان التبادل التجاري الاجمالي للسلع والخدمات بينهما يبلغ نحو 496 مليار دولار. وبلغت الصادرات الصينية الى الولايات المتحدة، نحو 308.4 مليارات دولار في مجال السلع (ونحو 331.8 مليارا عند احتساب السلع والخدمات معا)، بينما تبلغ الصادرات الاميركية الى الصين نحو 106.3 مليارات دولار في مجال السلع (ونحو 164.2 مليارا للسلع والخدمات معا). في الوقت نفسه، فان الصين تعتبر ثاني أكبر دائن أجنبي للولايات المتحدة (بعد اليابان)، اذ تمتلك ما يقارب 760 مليار دولار من سندات الخزانة الاميركية، وهي حيازة تمنح الصين نفوذا ماليا كبيرا، بينما توفر لأميركا سيولة مالية لدعم نظامها الائتماني.

مع ذلك، يعتبر الخبراء ان فكرة "الانفصال الاقتصادي الكامل" بين بكين وواشنطن صعبة للغاية نظرا الى تشابكهما المالي العميق والاعتماد الاميركي على التصنيع الصيني، في مقابل الاعتماد الصيني على السوق الاستهلاكية الاميركية الضخمة والسندات الدولارية.

هذا في الجانب الاقتصادي الذي يدفع الصين الى التصرف بحذر. لكن هناك ايضا الجانب العسكري حيث لا تظهر بكين رغبة او ميلا الى الصدام عسكريا مع الولايات المتحدة، القوة العسكرية الاولى في العالم، الى جانب انهما دولتان نوويتان تحاذران الاشتباك المباشر.

ان سجل البلدين شهد اصطدامهما عسكريا في الماضي. لكنها كانت مرة وحيدة تقريبا وذلك خلال الحرب الكورية (بين عامي 1950 و1953)، وذلك بعدما غزت كوريا الشمالية "شقيقتها" الجنوبية، فتدخلت الولايات المتحدة تحت مظلة الامم المتحدة للدفاع عنها، لكن الصين شعرت مع اقتراب القوات الاميركية من حدودها بالخطر، فخاضت قواتها معارك طاحنة مع الغزاة الاميركيين الذي اجبروا على التراجع عن الحدود الصينية.

كانت تلك المرة الوحيدة التي اندلعت حرب بين البلدين، علما انه خلال حرب فيتنام (بين عامي 1955 و1975)، ومع تدخل القوات الاميركية

> **إيران ليست تفصيلا في "الحزام والطريق"**

دعم غير مباشر

"مركز شاف للدراسات المستقبلية وتحليل الازمات والصراعات" المصري، قال في تقرير له ان الصين رغم الخطاب الرسمي الداعي للتهدئة، الا ان هناك "انخراطا غير مباشر في مسار الحرب عبر استمرار التعاون العسكري والتقني مع إيران، سواء من خلال دعم انظمة الدفاع الجوي، او تبادل البيانات والمعلومات الاستخباراتية". لكن المركز خلص الى القول ان الموقف الصيني من الحرب، يمكن النظر اليه باعتباره نموذجا لإدارة الازمات، يقوم على تعظيم المكاسب، وتقليل المخاطر في آن واحد.

لمنع سيطرة شيوعيي فيتنام على الحكم، لم ترسل بكين قواتها، لكنها امنت دعما هائلا للفيتناميين الشماليين، بمشاركة عدد كبير من الجنود الصينيين للقيام بمهمات "غير قتالية" بما في ذلك تأمين الامدادات العسكرية، مما ساهم في استنزاف الجيش الاميركي وهزيمته.

لهذا، ولأسباب كثيرة اخرى، وجدنا ان الصين تركز في تعاملها مع ملف الحرب الإيرانية باستراتيجية الحياد الحذر والديبلوماسية المتوازنة التي تتجنب الصدام المباشر مع الولايات المتحدة، وفي الوقت نفسه تحمي مصالحها الاقتصادية الحيوية، وتؤمن امدادات الطاقة. لكن في الوقت نفسه ايضا، تستغل الازمة المشتعلة في الخليج لتعزيز حضورها الديبلوماسي، وتأكيد دورها كقوة استقرار عالمية في مواجهة هيمنة اميركية تجلب في حرب ترامب المفاجئة على طهران.

مع ذلك، فان حرب ترامب تشكل تحديا استراتيجيا واقتصاديا لا مثيل له امام الصين التي سعت الى تفادي الانخراط العسكري المباشر. وفي الوقت ذاته الاعتماد على مزيج من الدعم الديبلوماسي لطهران، والاستمرار في جني المكاسب الاقتصادية والاستراتيجية، علما ان الصين تشتري 90% من صادرات النفط الإيراني، وحافظت على جزء كبير من مشترياتها هذه رغم اندلاع الحرب.

لكن بكين رغم حاجتها الى إيران، كانت تتجنب التضحية بكل الخليج اذا ما ظهرت منحازة بالكامل لصالح طهران، حيث ان حجم التبادل التجاري بين الصين ودول مجلس التعاون الخليجي يتخطى 300 مليار دولار.

ولأن اقتصادها يحتاج الى موارد طاقة مستمرة ومضمونة، فقد كان من الطبيعي ان تنظر الصين بقلق الى احتمال استطالة الحرب او اغلاق وتعطل مضيق هرمز حيث تمر غالبية وارداتها النفطية من الخليج عبر هذا المضيق. هكذا يمكن فهم سبب تركيزها على الدعوة الى وقف الحرب ورفضها لفكرة الحصار البحري او الاغلاق الذي يحاول ترامب فرضه، او القيود والاجراءات التي تحاول إيران تطبيقها.

الهاجس الصيني الآخر يتعلق بالنظام العالمي الذي يتشكل، حيث تعتبر بكين ان الحرب ◄

برهنت لها مجددا بأن السياسات التي تنتهجها الادارات الاميركية مزعزعة للاستقرار، في حين ان بكين قدمت نفسها امام العالم كقوة كبرى مسؤولة تدافع عن ميثاق الامم المتحدة ومبادئ سيادة الدول، وتعارض فكرة "الضربة الاستباقية" التي تكاد تتحول الى عرف دولي مقبول، وهو ما يطرح احتمالات قاتمة امام الصينيين مع استمرار الولايات المتحدة وحلفائها الغربيين والاقليميين في الشرق الاسيوي، بتعزيز قدراتهم العسكرية في محيط الصين. لقد نشر "مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات" تقريرا يشير الى رفض صيني لاستخدام المادة 51 من ميثاق الامم المتحدة كـ"شيك مفتوح" لتبرير الضربات الوقائية، مع توصيف بكين للعقوبات الغربية بأنها شكل من "الارهاب الاقتصادي".

لهذا، لم يكن غريبا ان بكين ضمت جهودها الى جهود باكستان التي كانت تلعب الدور الديبلوماسي الرئيسي للوساطة بين طهران وواشنطن، وطرحت بكين مع اسلام اباد مقترحات للسلام تضمنت وقفا فوريا لإطلاق النار، وضمان امن الملاحة في هرمز، واحترام سيادة دول المنطقة.

في الوقت نفسه، فان الصين كانت "تتعلم" حرفيا مما تشاهده وتراقبه: السلوك السياسي الاميركي؛ اساليب تهيئة الظروف للحرب؛ تجاهل القانون الدولي؛ الخداع الديبلوماسي؛ وثغر تأمين موارد الطاقة؛ اضافة الى دراسة اداء الجيشين الاميركي والإيراني، واهمية استخدام ما يعرف بحملات الضغط المتعددة الطبقات كالحظر البحري، التعطيل السيبراني، الضغط المالي، بدلا من الاكتفاء بالخيارات العسكرية التقليدية المكلفة والمحفوفة بالمخاطر.

ليس سرا في الوقت ذاته، ان الصين تنظر الى هذا المشهد من بعيد، وقد تملكتها الغبطة. انهماك الولايات المتحدة في "مستنقع"، اينما كان، يبعدها عنها، ويؤدي الى استنزاف القدرات الاميركية عسكريا واقتصاديا بعيدا من "الحرب الباردة" الجارية بينهما، بينما تركز الصين على تعزيز قدراتها العسكرية وتطوير اقتصادها، والتأهب ولو بهدوء لحرب تحرير تايوان الموعودة.

هكذا، فان العالم امام مشهدين، قوى كبرى غارقة في حروب استباقية ونزاعات عسكرية واغتيال زعيم دولة، وخطف رئيس دولة اخرى، وقوة كبرى اخرى تتعاطى بهدوء وحنكة وتريث وتتمسك بالقوانين الدولية، كما تسجل بكين نقطة لصالحها على حساب واشنطن. وقد قال وزير الخارجية الصينية وونغ يي في اختصار "هذه حرب ما كان يجب أن تحدث".

"استثمار 1.4 تريليون دولار في "الحزام والطريق"